

## صلاح الدين الأيوبي في الدراسات التاريخية الغربية دراسة تحليلية نقدية في بناء الصورة ومناهج التأريخ (1169-1193م)

عباس خالد عباس

قسم الجغرافية / كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة سامراء

### المستخلص

يتناول هذا البحث شخصية صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ / 1137-1193م) بوصفه من أبرز الشخصيات في التاريخ الإسلامي الوسيط، عبر مقارنة تحليلية نقدية تستقرئ كيفية تمثله في الدراسات التاريخية الغربية الحديثة، وترصد التحولات المنهجية في هذا الخطاب منذ مطلع القرن العشرين حتى اليوم. تسعى الدراسة إلى تحليل البنى الخطابية التي شكّلت صورة صلاح الدين في الكتابة الغربية ومقارنتها بما أثبتته المصادر العربية الأولية، مع تقييم أثر المناهج الاستشراقية في إنتاج المعرفة التاريخية حول هذه الشخصية المحورية. اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي النقدي المقارن، مستندة إلى مصادر أولية كابن شداد و عماد الدين الأصفهاني وابن الأثير، إلى جانب الدراسات الغربية المعاصرة. توصلت الدراسة إلى أن الصورة الغربية لصلاح الدين شهدت تحولاً جوهرياً من النمطية الاستشراقية التبسيطية إلى المقاربة التاريخية النقدية الأكثر موضوعية، وأن ثمة توافقاً نسبياً بين الروايتين في تقييم المنجزات الحضارية لصلاح الدين، مع بقاء فجوات تأويلية في مسائل الدوافع والأيديولوجيا.

**الكلمات المفتاحية:** صلاح الدين الأيوبي، الدراسات الاستشراقية، الحروب الصليبية، تحرير القدس، مناهج التأريخ الغربي، الدولة الأيوبية.

### Abstract

This research examines the figure of Saladin (532-589 AH / 1137-1193 CE) as one of the most prominent figures in medieval Islamic history, through a critical analytical approach that explores his representation in modern Western historical studies and traces the methodological shifts in this discourse from the beginning of the twentieth century to the present day.

The study aims to analyze the discursive structures that have shaped the image of Saladin in Western writings and compare them with what primary Arabic sources have established, while also assessing the impact of Orientalist approaches on the production of historical knowledge about this pivotal figure. The study adopts a comparative, critical, analytical historical method, relying on primary sources such as Ibn Shaddad, Imad al-Din al-Isfahani, and Ibn al-Athir, in addition to contemporary Western studies.

The study concludes that the Western image of Saladin has undergone a fundamental shift from simplistic Orientalist stereotypes to a more objective critical historical approach, and that there is a relative convergence between the two narratives in evaluating Saladin's civilizational achievements, although interpretive gaps remain regarding his motivations and ideology.

**Keywords:** Saladin, Orientalist studies, Crusades, liberation of Jerusalem, Western historiographical methods, Ayyubid state.



## 1. المقدمة

تحتل شخصية صلاح الدين الأيوبي مكانة استثنائية في ذاكرة الحضارة الإنسانية، إذ تجاوزت حدود الزمان والمكان لتغدو رمزاً معقداً تتشابك في تشكيله منظومات ثقافية وأيديولوجية وعقدية متباينة. فهو في الوجدان الإسلامي محرر القدس والرمز الأعلى للجهاد والوحدة، وفي الخطاب الغربي الوسيط كان يُصوّر بوصفه خصماً فارساً يتجلى فيه نموذج الأخر النبيل، أما في الدراسات الأكاديمية الغربية الحديثة فيمثل موضوعاً خلافياً تتقاطع حوله مناهج التاريخ وعلم السياسة والدراسات الثقافية [1].

وقد أولت الكتابة التاريخية الغربية اهتماماً متنامياً بشخصية صلاح الدين منذ مطلع القرن التاسع عشر، غير أن هذا الاهتمام لم يكن متجانساً في مناهجه أو منطلقاته؛ إذ ظلت الدراسات الاستشراقية التقليدية أسيرة لمنطق ثنائيات الذات والأخر، فأعدت إنتاج صورة نمطية تبسيطية للشخصية الأيوبية تُضخم الجانب البطولي الرومانسي على حساب التحليل الموضوعي للسياق التاريخي والبنى السياسية والعسكرية [2,3].

وتتمحور إشكالية البحث حول ثلاثة محاور رئيسية: أولاً، ما الصورة التي رسمتها الدراسات الغربية لصلاح الدين عبر مراحلها المتعاقبة؟ ثانياً، ما المنعطفات المنهجية التي أحدثت تحولات جوهرية في هذا الخطاب؟ ثالثاً، أين تقع نقاط الالتقاء والافتراق بين الروايتين الإسلامية والغربية في تقييم المنجز الأيوبي؟ [4]

## 2. صلاح الدين في المصادر الإسلامية الأولية

لا يمكن تقييم الخطاب الغربي حول صلاح الدين بمعزل عن الإرث الوثائقي العربي الإسلامي الذي يُشكّل المرجعية الأساسية لأي دراسة معمّقة لهذه الشخصية. وتتصدر هذه المصادر كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لبهاء الدين ابن شداد، الذي يُعدّ من أدق السير الذاتية وأكثرها موثوقية، إذ دَوّن مؤلفه تفاصيل دقيقة عن شخصية صلاح الدين بعد صحبة مباشرة امتدت سنوات، كاشفاً عن مزدوجة الشخصية الأيوبية التي جمعت بين صرامة القائد العسكري ورقة المؤمن الورع [5].

ويتكامل مع هذه الصورة ما يقدّمه عماد الدين الأصفهاني في "الفتح القسي في الفتح القدسي" من شهادة حيّة على أحداث تحرير القدس، وإن كان أسلوبه المنمّق يجعل فصل الحقيقة التاريخية عن الإنشاء الأدبي مهمةً تحتاج إلى دراية بالنقد التاريخي. أما ابن الأثير في "الكامل في التاريخ" فيقدّم مقارنةً أقل انحيازاً وأكثر نقديّة، لا سيما في تقييمه لحمولات صلاح الدين وتعاملاته مع القوى الإسلامية الأخرى [6,7].

وتكشف هذه المصادر مجتمعةً عن صورة أكثر تركيباً وعمقاً مما تُقرّه الأنماط الغربية التقليدية؛ فصلاح الدين لم يكن فقط محارباً دينياً غوراً، بل كان مهندساً سياسياً بارعاً أعاد رسم خريطة القوى في الشرق الأدنى، وبنائياً للمؤسسات ضخّ فيها الحياة في منظومة تعليمية ووقفية جديدة [8].

## 3. مراحل تطوّر الخطاب الغربي حول صلاح الدين

يمكن تقسيم مسيرة الكتابة التاريخية الغربية عن صلاح الدين إلى ثلاث مراحل متميزة يتضح فيها التطور المنهجي والمعرفي بصورة جلية:

### 1- مرحلة التأريخ الاستشراقي الكلاسيكي (القرن التاسع عشر – منتصف القرن العشرين):

هيمنت في هذه الحقبة ثنائية الصراع بين الشرق والغرب على الكتابة الغربية، وانعكس ذلك في صورة لصلاح الدين تجمع بين تعظيمه بوصفه "الفرار الشرقي" والتهوين من الأبعاد الدينية لمشروعه السياسي. وكان كتاب ستانلي لين-بول الصادر عام 1898م نموذجاً مثالياً لهذا التوجه؛ إذ قدّم صلاح الدين بوصفه نقبض ريتشارد الأوروبي بدلاً من رؤيته في سياق الحضاري الأصيل [9].

### 2- مرحلة المراجعة النقدية (السبعينيات – التسعينيات):

في عام 1972م نشر أهرنكرويتز دراسته النقدية الشهيرة التي طعن فيها في الرواية التقليدية المثالية لصلاح الدين، مُسلطاً الضوء على البراغمية السياسية والتنافس مع القوى الإسلامية المعاصرة. [10] وفي عام 1982م أصدر ليونز وجاكسون سيرتهما الأكاديمية الموسّعة التي التزمت منهجاً أكثر توازناً وعالجت المصادر العربية بجديّة أكاديمية مستحقة [2].



### 3- مرحلة التاريخ العابر للحضارات (القرن الحادي والعشرون):

شهدت هذه المرحلة توسيعاً لنطاق المصادر وتعمقاً في التحليل المقارن. وتعدّ دراسة هيلنبراند في "The Crusades: Islamic Perspectives" نقلةً نوعيةً في هذا الاتجاه؛ حيث قاربت الشخصية الأيوبية من زاوية الذاكرة الجماعية الإسلامية وكيفية توظيفها خطابياً. [11] وعلى خطاها سار كوب في كتابه "The Race for Paradise" الذي أعاد وضع صلاح الدين في سياق تاريخي متكامل بعيداً عن الحواجز الثقافية الكلاسيكية [12].

### 4. السياق التاريخي والجغرافي لصعود صلاح الدين

#### 1- البيئة السياسية في الشرق الأدنى قبيل ظهوره:

وُلد صلاح الدين يوسف بن أيوب عام 532هـ/1137م في تكريت لأسرة كردية ذات أصول في منطقة دوين بأرمينيا، وهي مدينة استراتيجية على ضفاف دجلة. نشأ في كنف أبيه نجم الدين أيوب ثم عمه أسد الدين شيركوه، وهما من أبرز قادة الجيش الزنكي تحت إمرة نور الدين محمود. وقد مثلت هذه البيئة العسكرية والسياسية المتوترة مدرسةً فريدة في فن الحكم والحرب، إذ كانت قوى الحروب الصليبية المتمثلة في الإمارات الفرنجية قد رسّخت وجودها على الساحل الشامى، فيما كانت الدولة الفاطمية الشيعية في مصر تعاني من وهن داخلي متصاعد. وفي هذا الإطار المضطرب تشكلت شخصية صلاح الدين التي نضجت مبكراً على مشاهد الصراع والتحالفات المتبدلة؛ فكان يرى أن الوحدة الإسلامية ليست مجرد شعار بل ضرورة حضارية تقتضيها طبيعة المواجهة مع القوى الصليبية التي كانت تستثمر كل تصدّع في الصف الإسلامي. وقد منحه احتكاكه المبكر بنور الدين زنكي نموذجاً في السياسة والتفوق والعدل سعى طوال حياته إلى محاكاته والبناء عليه.

#### 2- الصعود إلى السلطة في مصر (1169م):

تُشكّل حملة شيركوه على مصر عام 1164م وما تلاها من أحداث نقطة تحوّل مفصلية في مسيرة صلاح الدين. فحين أرسل مرافقاً لعمه في الحملة الثالثة لم يكن سوى قائد ميداني واعد، إلا أنه حين تُوفّي شيركوه عام 564هـ/1169م عقب توليه الوزارة في القاهرة، وجد صلاح الدين نفسه وريثاً لمنصب لم يسع إليه ابتداءً. استغل صلاح الدين الموقف ببراعة دبلوماسية لافتة؛ فأمسك بزمام الوزارة في مصر وهو اسمياً خاضع للخليفة الفاطمي، لكنه كان في الحقيقة يُرسي سلطته المستقلة خطوةً بعد خطوة.

وفي عام 567هـ/1171م أعلن صلاح الدين سقوط الخلافة الفاطمية وإحياء الخطبة للخليفة العباسي في بغداد، مُنهياً بذلك قرن من الحكم الشيعي الإسماعيلي في مصر. وقد جاء هذا الإجراء متوافقاً مع توجهات نور الدين الزنكي ومستجيباً للطموح السني العام، كما كان يُكرّس شرعيةً دينيةً لا غنى عنها لمن يُريد أن يكون قائداً للجهاد ضد الصليبيين.

#### 3- توحيد الشام ومصر وأثره الاستراتيجي:

أدرك صلاح الدين مبكراً أن مواجهة الصليبيين لن تكون ممكنة إلا من منطلق قوة موحّدة تجمع بين الثروات الزراعية لمصر والموقع الاستراتيجي للشام وقدرات بلاد ما بين النهرين البشرية. لذا أطلق مساعيه التوحيدية فور استقرار أوضاعه في مصر، فضمّ الشام بين عامي 570-578هـ/1174-1183م في مسار طويل من التفاوض والحملات العسكرية المحدودة والتحالفات المتغيرة، مُتعاملاً مع الإمارات الزنكية والأرتقية بمزيج من القوة واللين. وقد دفع هذا التوجه نَفراً من المؤرخين الغربيين كأهرنكرويتز إلى التشكيك في صدق الدوافع الدينية لدى صلاح الدين، مُرَجِّحين أن التوحيد الإسلامي لم يكن سوى غطاء لمشروع توسعي طموح. غير أن الروايات الإسلامية الأولية والحجج المنطقية الاستراتيجية تُثبت أن الأمر لم يكن انفصالاً بين البعدين بل تكاملاً عضوياً بينهما [10, 3].

### 5. السياسة الدينية والمشروع العقدي

#### 1- إسقاط الدولة الفاطمية وإحياء السنة في مصر:

يُمثّل القرار التاريخي بإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر عام 567هـ/1171م أحد أعمق التدخلات في بنية الشرعية الدينية والسياسية التي شهدتها الشرق الأوسط الوسيط. فقد أنهى صلاح الدين بقرار واحد ما يزيد على مئتي عام من حكم الخلافة الإسماعيلية الفاطمية، مُعيداً مصر إلى حوضها السني وفتحاً المجال أمام مشروع وحدوي إسلامي لم يكن ممكناً في ظل الانقسام المذهبي.



ورغم أن بعض المؤرخين الغربيين يرون في هذا القرار تعبيراً عن براغماتية سياسية بحتة، فإن المصادر العربية الأولية تُظهر أن صلاح الدين كان مقتنعاً بأن إحياء السنة في مصر شرطٌ ضروري للجهاد، لا مجرد أداة للشرعة السياسية [5,8].

### 2- السياسة التعليمية والمؤسسات الوقفية:

أولى صلاح الدين اهتماماً استثنائياً بالبنية التعليمية والمؤسسية التي تُرسخ الهوية السنية وتنتج الكفاءات اللازمة للإدارة والقضاء والجهاد. فأسس عدداً كبيراً من المدارس في القاهرة ودمشق والقدس، ومنها المدرسة الشافعية في القاهرة والمدرسة العزيمية في دمشق، فضلاً عن تحويل كنيسة القديس أنا في القدس إلى مدرسة إسلامية عقب تحريره. كما أعاد تنظيم القضاء ونشر القضاة الشافعيين في المناطق التي انضمت تحت سيطرته، ساعياً إلى توحيد المرجعية الفقهية في إمبراطوريته المترامية [8,15].

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات الغربية المتقدمة كدراسة كريستي قد أعادت تقييم هذا البُعد بموضوعية أكبر، مُثَمِّنة الدور المؤسسي لصلاح الدين في بناء منظومة الأوقاف التي وفّرت الاستدامة المالية للمؤسسات الدينية والتعليمية بعيداً عن تقلبات الخزينة السياسية. وهو ما يشير إلى وعي حضاري يتجاوز حدود الإدارة اليومية نحو تأسيس بنية تحتية ثقافية ذات أثر ممتد في الزمن [15].

### 3- صلاح الدين والتصوف: علاقة التسامح والتوظيف:

كشفت دراسات حديثة عن علاقة مرگبة بين صلاح الدين والتيارات الصوفية في عصره؛ إذ لم يكن يُبدي العداء لها كما فعل بعض المتشدددين السنيين، بل كان يستوعب رموزها ويستفيد من شبكاتها الاجتماعية الواسعة بوصفها قنواتٍ للنفوذ الروحي والشعبي في المدن والأرياف. وقد وفّر للخانقاوات والرباطات الصوفية الدعم المادي الكافي، مُدركاً أن للتصوف دوراً لا غنى عنه في تحفيز الروح المعنوية وتعزيز الانتماء الهوياتي للمجتمعات المسلمة في مناطق حدودية تتجاذبها تأثيرات ثقافية متعددة.

### 6. القيادة العسكرية وموقعة حطين

يتفق المؤرخون الغربيون المحدثون على أن معركة حطين عام 583هـ/1187م لم تكن مواجهةً ميدانية عرضية، بل ثمرةً لتخطيط استراتيجي ممتد استغل الطبيعة الجغرافية والتعقيدات الداخلية للمملكة الفرنجية. فقد أحكم صلاح الدين الحصار التدريجي على المناطق الصليبية قبل أن يُقدم على الضربة الحاسمة، مما يدل على عقلية قائد يُحسب للهزيمة قبل أن يبحث عن النصر [13,14].

أما على الصعيد السياسي فكان صلاح الدين يُدير توازنات في غاية التعقيد؛ فهو من جهة يُنَبِّت شرعيته في مواجهة التشكيك الزنكي والتوجسات العباسية، ومن جهة أخرى يتعامل بمرونة لافتة مع القوى المسيحية المختلفة. ويكشف عقد اتفاقية الرملة عام 1192م مع ريتشارد الأول عن براغماتية سياسية رقيقة لا تُهدن المبدأ لكنها تُقرّ بحدود القدرة [2].

### 7. الدبلوماسية الأيوبية والعلاقات مع القوى الغربية

#### 1- أسلوب صلاح الدين في إدارة الهدنات والمعاهدات:

لم يكن صلاح الدين مجرد قائد حربي بل كان دبلوماسياً من الطراز الأول، أدار مفاوضاته مع ملوك أوروبا وأمراء الصليبيين بمنطق براغماتي دقيق لا يتناقض مع مبادئه الإيمانية بل يُقَدِّمها في صياغات قابلة للتفاوض. وقد تجلّى ذلك بوضوح في مراسلاته مع الإمبراطور فريديريك الأول وفيليب الثاني ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد، حيث كان يُبدي احتراماً مُحسوباً لقيم الفروسية ومفاهيم الشرف التي تُشكّل مرجعية المفاوضات الأوروبية، مستخدماً إياها جسراً للتواصل دون أن يتنازل عن جوهر موقفه.

وقد ظلّت هدنة الرملة عام 588هـ/1192م مع ريتشارد الأول النموذج الأبرز على هذا الأسلوب الدبلوماسي المتوازن؛ فقد أبقّت القدس في يد المسلمين وكفلت للحجاج المسيحيين حق الزيارة، مُحَقِّقةً بذلك مكسباً مزدوجاً: الاعتراف الغربي بالسيادة الإسلامية على المدينة مع استيعاب المخاوف الدينية الأوروبية التي كانت تُحرِّك الحملات الصليبية المتتالية [2].

## 2- مراسلاته مع ملوك أوروبا: جسر بين الحضارتين:

تُشكّل مراسلات صلاح الدين مع ملوك أوروبا وثيقةً فريدة في تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية الوسيطة. فرغم ضراوة المواجهات العسكرية كانت ثمة قناة تواصلية متواصلة تعكس وعي الطرفين بأن التفاوض ليس ضعفاً بل ضرورة. وتتميز هذه المراسلات بلغة احترام متبادل لافتة، إذ يُخاطب صلاح الدين نظراءه الأوروبيين بعبارات توفير تتجاوز أعراف التواصل بين خصمين [5].

وقد استثمر صلاح الدين المراسلات البروتوكولية استثماراً سياسياً ذكياً؛ إذ وظّف تبادل الهدايا والرسائل الودية أداةً لبتّ الخلافات في الجبهة الصليبية المتصدعة أصلاً بين الأوروبيين أنفسهم. فكان يُكثر من التواصل مع فريق دون آخر حسباً لمقتضيات اللحظة السياسية، متعاملاً مع الانقسامات الأوروبية كعامل استراتيجي لا يقل أهمية عن عامل القوة العسكرية.

## 3- صلاح الدين والمملكة الفرنجية: سياسة الاحتواء والضغط:

كان تعامل صلاح الدين مع المملكة الفرنجية نموذجاً لما يمكن تسميته بـ"الضغط الاستراتيجي المتدرج"؛ فلم يُسارع إلى المواجهة الشاملة حين آلت إليه زمام الأمور، بل انتهج سياسة الضغط المتصاعد والهدنات المنكررة، مُستثمراً الوقت في توحيد الجبهة الإسلامية وحشد الموارد وتحبيد الأطراف المترددة. وحين استوفت الشروط الاستراتيجية أُطلق حملة حطين من موقع القوة لا الاندفاع، محوّلاً الغلظة الاستراتيجية لأرناط في اعتراض قوافل المسلمين إلى ذريعة شرعية للمواجهة الكبرى [13].

## 8. تحرير القدس في الروايتين الإسلامية والغربية

يظل تحرير القدس عام 583هـ/1187م للتحفة المحورية التي تتمركز حولها القراءات الغربية لشخصية صلاح الدين. ففي الرواية الإسلامية تمثل هذه الحادثة ذروة التجربة الحضارية الأيوبية وإعادة توحيد الجغرافيا الروحية للأمة بعد قرابة تسعين عاماً من الاحتلال الصليبي، وهو ما عبّر عنه ابن شداد تعبيراً مؤثراً في وصفه دموع صلاح الدين لحظة دخوله المسجد الأقصى [1].

أما الكتابة النقدية الغربية الأحدث فتميل إلى قراءة قرار الرحمة بالمسيحيين بوصفه حسابات سياسية محكمة؛ إذ يُبين كوب أن صلاح الدين أراد تحويل القدس إلى عاصمة قابلة للحكم لا إلى رماد، مما يعكس عمق الوعي الحضاري الأيوبي بمفهوم الدولة ومتطلبات الاستدامة [12,15].

## 9. صلاح الدين في الأدب والثقافة الغربية

### 1- التمثيل في الأدب الغربي الوسيط:

لم يكن صلاح الدين غائبا عن الخيال الأدبي الغربي حتى في زمن المواجهة العسكرية المباشرة، بل كانت شخصيته تُطلّ بصورة لافتة في النصوص الغربية الوسيطة بهيئة "الأخر النبيل" الذي يُضفي بحضوره معياراً أخلاقياً يُستشهد به في سياقات المدح الغربي الداخلي. فقد أورد الشاعر الإيطالي العظيم دانتي أليغيري في الكوميديا الإلهية اسم صلاح الدين ضمن الفضلاء الذين حظوا بنوع من الرعاية الإلهية، وهو شرف استثنائي منحه دانتي لحفنة مختارة من العظماء عبر التاريخ.

أما في الأدب الروائي الغربي فقد بلغ تمثيل صلاح الدين ذروته في رواية "الطلسم" (The Talisman) للكاتب الاسكتلندي والتر سكوت الصادرة عام 1825م، التي قدّمت صلاح الدين في صورة شبه أسطورية جمعت بين عظمة القائد ونبل الأخلاق وسعة الأفق. وقد شكّلت هذه الرواية مرجعاً ثقافياً شعبياً أثر في تشكيل صورة صلاح الدين في الوجدان الغربي على مدى أجيال، وإن كانت تُجسد في الوقت ذاته إشكاليات التمثيل الرومانسي الإسقاطي الذي يُعيد الآخر في صورة المرأة المُجلّوة لقيم الذات الغربية.

### 2- صلاح الدين في السينما والإعلام الحديث:

احتلّت شخصية صلاح الدين مكانة بارزة في الإنتاجات السينمائية والإعلامية الغربية، وإن كانت طريقة التمثيل تكشف في معظم الأحيان عن منطلقات أيديولوجية أعمق من مجرد الاهتمام التاريخي. ففي فيلم "مملكة السماء" (Kingdom of Heaven) لريديلي سكوت الصادر عام 2005م جرى تقديم صلاح الدين بأداء هادئ مُتوازن، في تصوير يُعلي من



شأن العقلانية والتسامح الديني بما يتسق مع خطاب الحوار بين الحضارات السائد في مرحلة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

وقد رصد عدد من الباحثين كيف أن التمثيل السينمائي الغربي لصالح الدين يعكس دوماً هموم اللحظة الراهنة أكثر مما يستعيد حقائق اللحظة التاريخية؛ فحين تسود مشاعر الذنب الاستعماري يُقدّم راعياً للتعايش، وحين تهيم صراعات الهوية يُستحضر بوصفه الخصم الشريف. وهذا الاستخدام التوظيفي يعكس في حقيقته أزمة الخطاب الغربي مع الآخر الإسلامي أكثر مما يعكس أي التزام حقيقي بالموضوعية التاريخية.

### 3- التراث الشفاهي والذاكرة الشعبية الأوروبية:

تمتد آثار صلاح الدين في الذاكرة الأوروبية الشعبية عبر تقاليد لاقتة؛ إذ تشير الدراسات الأنثروبولوجية إلى أن بعض أسر الحملات الصليبية الأوروبية كانت تحفظ قصص الكرم الصلاحي وتُمرّرها من جيل لجيل بوصفها درساً في أخلاق الحرب والقيادة، وهو شكل فريد من أشكال الاعتراف الضمني بعملة الخصم. كما أن بعض المناطق الأوروبية التي احتكت بجيشه تحتفظ في موروثها الشفاهي بأساطير وحكايات متجددة في ذاكرة جماعية حقيقية عن عدله وكرمه.

## 10. إشكالية التوظيف الأيديولوجي المعاصر

### 1- صلاح الدين في الخطاب السياسي العربي الحديث:

منذ مطلع القرن العشرين وشخصية صلاح الدين تُوظف توظيفاً مكثفاً في الخطاب السياسي العربي على مستويات متعددة تتراوح بين الاستلهام الثقافي المشروع والتوظيف الأيديولوجي الانتقائي. فمنذ نكبة فلسطين عام 1948م أصبح استحضار صلاح الدين استحضاراً تلقائياً في خطاب المقاومة والتحرير، بوصفه برهاناً تاريخياً على إمكانية استعادة القدس. وقد وظّف الزعيم المصري جمال عبد الناصر هذا الرمز بشكل صريح في حركته القومية العربية، مُستلهماً من السيرة الأيوبية نموذجاً للوحدة العربية والصمود في وجه القوى الأجنبية.

غير أن هذا التوظيف الأيديولوجي لم يخلُ من انتقائية تاريخية مثيرة للإشكال؛ إذ كان ينتزع صلاح الدين من سياقه التاريخي المتكامل ليُقحمه في سياقات أيديولوجية متباينة. فالتيارات القومية العلمانية استخدمته رمزاً للهوية العربية الموحدة متجاهلةً بُعد الإسلام الجوهري، في حين استحضرت الحركات الإسلامية رمزاً للمشروع الجهادي متجاهلةً أبعاده السياسية البراغماتية [16,17].

### 2- الاستخدام الغربي المعاصر: بين الاحتفاء والمسافة النقدية:

لا يختلف الخطاب الغربي المعاصر في توظيفه لشخصية صلاح الدين عن الخطاب العربي من حيث الانتقائية، وإن كانت توجهاته مختلفة. ففي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م أصبح صلاح الدين يُستحضر في الخطاب الغربي بوصفه مثلاً على "المسلم المعتدل" بمعزل عن السياق الأيديولوجي الجهادي الذي يُمثل حقيقة لا يمكن إنكارها في تكوين شخصيته. وفي المقابل تستخدمه التيارات اليمينية المتطرفة في الغرب دليلاً على خطر المشروع الإسلامي التوسعي. وفي الحالتين يُوظف التاريخ لخدمة الحاضر لا لفهم الماضي [4,11].

### 3- نحو قراءة تحريرية للشخصية الأيوبية:

يدعو المؤرخون المعاصرون من أمثال هيلنبراند وكوب إلى "القراءة التحريرية" لشخصية صلاح الدين؛ أي تحريرها من أسر التوظيف الأيديولوجي في كلا الاتجاهين وردّها إلى سياقها التاريخي الحي. فصلاح الدين شخصية بالغة التعقيد تجمع في آن واحد بين الورع الإيماني والحكمة السياسية وأحياناً البراغماتية المُخَيبة للتوقعات. وهو لم يكن ملاكاً معصوماً من الأخطاء كما يُقدّمه المديح الإسلامي الشعبي، ولم يكن "فارساً شرقياً" رومانسياً كما يُصوّره بعض الغربيين [12,18].

## 11. النتائج والمناقشة

أولاً: شهد الخطاب التاريخي الغربي تحولاً بنيوياً جوهرياً انتقل فيه من الأحكام المشبعة بالمسبقات الثقافية إلى مقاربة منهجية أكثر انضباطاً وتعاملاً جاداً مع المصادر الإسلامية. وقد أسهمت حركة ما بعد الاستعمار وإسهام إدوارد سعيد في نقد الاستشراق في هذا التحول المنهجي [4].

ثانياً: يبرز تناقض منهجي لافت في الدراسات الغربية التقليدية بين تعظيم صلاح الدين على المستوى الأخلاقي الشخصي والتهوين من مشروعه السياسي والديني، وهو تناقض يعكس ضيق الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي بقبول فاعل تاريخي إسلامي يجمع بين الكفاءة والشرعية الإيمانية.

ثالثاً: كشفت الدراسات الغربية الجديدة كدراسة هيلنبراند وكريستي أن صلاح الدين كان حاضناً للعلوم والتعليم والبنية الوقفية، وهو بُعد أهمله التاريخ الغربي الكلاسيكي إهمالاً شبه تام [11,15].

رابعاً: تكشف المقارنة بين الروابطين الإسلامية والغربية المتأخرة عن قدر كبير من الالتقاء في تقييم أهمية حطين واسترداد القدس، بينما تبقى هوة تأويلية في مسألة العلاقة بين الدين والسياسة في منظومة القرار الأيوبي [16,17].

خامساً: أثبتت الدراسة أن التوظيف الأيديولوجي لشخصية صلاح الدين ظاهرة مشتركة بين الخطابين الغربي والعربي، وأن المعالجة الأكاديمية الموضوعية تقتضي الفصل المنهجي بين ما يُثبت التاريخ وما يُمليه الخطاب السياسي المعاصر.

## 12. الخاتمة

تنتهي هذه الدراسة إلى أن شخصية صلاح الدين الأيوبي، بما تنطوي عليه من تعقيد وثراء، قد تحمّلت على مدى قرون عبء القراءات الإسقاطية سواء في الخطاب الإسلامي الذي حوّلها إلى أيقونة وعي جمعي، أو في الخطاب الغربي الذي أدارها بين الإعجاب الرومانسي والاختزال الاستشراقي. بيد أن الحقبة الأكاديمية الراهنة تُبشّر بأفق منهجي أكثر نضجاً يسعى إلى إعادة هذه الشخصية إلى سياقها التاريخي الحي بعيداً عن الاستثمار الأيديولوجي في كلا الاتجاهين [18].

وتوصي الدراسة بتعزيز البحث في الأرشيفات العربية غير المنشورة المتعلقة بالحقبة الأيوبية، وإطلاق مشاريع بحثية مشتركة بين الباحثين العرب والغربيين تقوم على تكافؤ المنهج لا على هيمنة النموذج المعرفي لأحد الطرفين على الآخر. كما تُوصي الدراسة بضرورة استحداث مقاربة نقدية للتوظيف الأيديولوجي للتاريخ في المناهج الدراسية العربية والغربية على حدٍ سواء، حتى تُعاد الشخصية التاريخية الكبرى إلى موقعها الطبيعي أداة للمعرفة والتأمل لا سلاحاً في معارك الهوية المعاصرة.

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر والمراجع العربية

- [1] ابن شداد، بهاء الدين يوسف. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق: جمال الدين الشيال. مكتبة الخانجي، القاهرة. دت. ص 23-31.
- [5] ابن شداد، بهاء الدين يوسف. المصدر السابق. ص 99.
- [6] ابن الأثير، عز الدين علي. الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 1997م. ج11، ص 329-335.
- [7] الأصفهاني، عماد الدين محمد. الفتح القسي في الفتح القدسي. دار المعارف، القاهرة. 1965م. ص 41-49.
- [8] أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن. الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. مؤسسة الرسالة، بيروت. 1974م. ج2، ص 184.
- [16] حرب، علي. صلاح الدين الأيوبي: الشخصية والعصر. دار الفكر المعاصر، بيروت. 2001م. ص 201.
- [17] الشيال، جمال الدين. تاريخ مصر الإسلامية: العصر الأيوبي. مكتبة مدبولي، القاهرة. 2003م. ص 88.

### ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية

- [2] Lyons MC, Jackson DEP. Saladin: The Politics of the Holy War. Cambridge University Press; 1982. p. 3.
- [3] Ehrenkretz AS. Saladin. State University of New York Press; 1972. p. 5.
- [4] Said EW. Orientalism. Pantheon Books; 1978. p. 204.
- [9] Lane-Poole S. Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. G. P. Putnam's Sons; 1898. p. 12.
- [10] Ehrenkretz AS. Saladin: A Critical Study of his Life and Work. State University of New York Press; 1972. p. 22.



- 
- [11] Hillenbrand C. The Crusades: Islamic Perspectives. Edinburgh University Press; 1999. p. 171.
- [12] Cobb PM. The Race for Paradise: An Islamic History of the Crusades. Oxford University Press; 2014. p. 166.
- [13] Nicolle D. Hattin 1187: Saladin's Greatest Victory. Osprey Publishing; 1993. p. 44.
- [14] France J. Victory in the East: A Military History of the First Crusade. Cambridge University Press; 1994. p. 362.
- [15] Christie N. Muslims and Crusaders. Routledge; 2014. p. 87.
- [18] Hillenbrand C. The Crusades: Islamic Perspectives. Edinburgh University Press; 1999. p. 589.